قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما الَّذي يجب التزامه في حقِّ القرآن على جميع الأمَّة؟

ج: هو اتِّباعه ظاهرًا وباطنًا، والتَّمسُّك به، والقيام بحقِّه.

قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف:٣].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف].

وهي عامَّةٌ في كلِّ كتابٍ.

والآيات في ذلك كثيرٌ.

وأوصى النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتاب الله؛ فقال: «**فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَتَمَسَّكُوا بِهِ**».

وفي حديث عليٍّ مرفوعًا: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ**»، قلتُ: ما المَخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللهِ**»، وذكر الحديث.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ سؤالًا آخر يتعلَّق بالقرآن الكريم؛ فقال: (ما الَّذي يجب التزامه في حقِّ القرآن على جميع الأمَّة؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (هو اتِّباعه ظاهرًا وباطنًا) أي أنَّه يجب على جميع الأمَّة أن

يتَّبعوا القرآن في أعمالهم الظَّاهرة والباطنة؛ بأن يجعلوه إمامًا لهم، فيمتثلوا ما فيه مِن خبرٍ وطلبٍ.

وهو الَّذي جاء الأمر به في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٥]؛ فقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي خذوا به واجعلوه إمامَكم وقائدَكم.

وقدَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين يدي الأمر به وصفَه بأنَّه كتابٌ مباركٌ؛ فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾، وكان الكلام يمكن أن يقع مستقيمًا في اللِّسان العربيِّ لو قيل: (وهذا كتابٌ أنزلناه فاتَّبِعوه)، وزِيد الوصف لبيان مُوجِب اتِّباعه؛ وهو كونه كتابًا مباركًا؛ أي ذو بركةٍ.

و(**البَركة**): الخير الكثير.

فخير القرآن كثيرٌ لا ينقطع.

ثمَّ أورد آيةً أخرى؛ وهي قوله تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣] الآية؛ وفيها - أيضًا -: الأمر بالاتِّباع.

ثمَّ ذكر قول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] الآية؛ وذُكِر هذا الفعل مشدَّدًا للحثِّ على قوَّة الأخذ بالقرآن، والتَّعلُّق به.

فتضعيف الفعل دالٌّ على طلب قوَّة أخذه؛ فقولُك: (مسِّك القرآن) أبلغ من قولك: (أمسِك بالقرآن)؛ لأنَّ تضعيف الفعل بجعله مشدَّدًا يدلُّ على الحضِّ على شدَّة التَّمسُّك به واتِّباعه [1].

---

(١) وذكر الله عَزَّوَجَلَّ إقامة الصَّلاة بعد ذِكره؛ لأنَّها أجلُّ أعمال المتَّبِعين للكتاب الممسِّكين به؛ فإنَّ أجلَّ

ثمَّ ذكر طرفًا من الأحاديث الواردة عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

منها: وصيَّتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدِ بنِ أرقمَ في «صحيح مسلمٍ» أنَّه قال: («**فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَتَمَسَّكُوا بِهِ**»)؛ فالأمر بالأخذ أمرٌ بالاتِّباع، والأمر بالتَّمسُّك أمرٌ بقوَّة الاتِّباع، وهو الأخذ بقوَّةٍ؛ فهو نظيرُ قوله تَعَالَى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم:١٢].

ثمَّ ذكر حديث (عليٍّ) عند التِّرمذيِّ: («**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ**»، قلتُ: ما المَخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللهِ**»)؛ وهو طرفٌ من حديثٍ طويلٍ، وفي إسناده ضعفٌ.

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ؛ وهي تدلُّ على وجوب اتِّباع القرآن ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ الخير والفلاح كلَّه في القرآن.

وهو أعظمُ دواوين العلم، والإيمان، والعمل، والصَّلاح، والزَّكاة، والإرشاد؛ فمَن أراد أن يبلغ الخير فيها فلْيلزَم القرآن؛ فإنَّ القرآن هو أصل العلم، ومنه تتفجَّر ينابيع صلاح النَّفس وزكاتها وطهارتها وحُسن عملها ومراقبتها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أعمالهم الظَّاهرة البدنيَّة إقامة الصَّلاة. [شرح برنامج التَّعليم المستمر].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما معنى التَّمسُّك بالكتاب والقيام بحقِّه؟

ج: حفظُه، وتلاوته، والقيام به آناء اللَّيل والنَّهار، وتدبُّر آياتِه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والانقياد لأوامره، والانزِجار بزواجره، والاعتبار بأمثاله، والاتِّعاظ بقَصصه، والعمل بمحكَمه، والتَّسليم لمتشابِهه، والوقوف عند حدوده، والذَّبُّ عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطِلين، والنَّصيحة له بكلِّ معانيها، والدَّعوة إلى ذلك على بصيرةٍ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ سؤالًا آخر يتعلَّق بالقرآن؛ فقال: (ما معنى التَّمسُّك بالكتاب) أي بالقرآن (والقيام بحقِّه؟).

ثمَّ أجاب عنه بذكر أفرادٍ كثيرةٍ؛ فقال: (حفظُه) أي استظهاره عن ظهر قلبٍ، (وتلاوته) أي قراءته، (والقيام به آناء اللَّيل والنَّهار) أي الأزمنة المختلفة من اللَّيل والنَّهار، فـ(الآن) هو الحين والزَّمان.

قال: (وتدبُّر آياتِه) أي الوصول إلى غاية الخطاب القرآنيِّ؛ أي ما يُراد منه؛ فإن كان مِن باب الخبر صَدَّق، وإن كان مِن باب الطَّلب امتثلَ الأمر وانزجَرَ عن النَّهي.

هذا هو معنى (التَّدبُّر) المأمور به شرعًا.

وهو متوقِّفٌ على معرفة التَّفسير؛ قال ابن تيميَّةَ الحفيد: (ولا يمكن تدبُّر القرآن إلَّا

بمعرفة تفسيره).

مثاله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء:٧٨] تتدبَّرها أوَّلًا بمعرفة تفسيرها؛ فتعرفَ معنى (الدُّلوك) أنَّه زوال الشَّمس، ويندرج في (الزَّوال): وقت الظُّهر، ووقت العصر؛ فكلُّه معلَّقٌ بالزَّوال وما يتبعه من الظِّلِّ.

فيكون تدبُّر هذه الآية: الأمر بإقامة الصَّلاة في هذين الوقتين.

هذا هو التَّدبُّر الَّذي أُمِر به في غير موضعٍ من القرآن، وهو الَّذي كان عليه سلف الأمَّة.

أمَّا تسمية التَّفسير الإشاريِّ، أو الخواطر المُرسَلة (تدبُّرًا) فليس مِن هذا الباب.

فـ**(التَّفسير الإشاريُّ)** صحيحٌ بشروطٍ؛ أي يكون في الآية إشارةٌ إلى معنًى قد يخفى؛ فهذا صحيحٌ بشروطٍ بيَّنها ابن القيِّم في «أعلام الموقِّعين».

وأمَّا (الخواطر المُرسَلة): فلا يجوز للإنسان أن يتكلَّم بما يقع في خواطره في القرآن بلا علمٍ؛ لأنَّ القول في تفسير القرآن - كما قال بعض السَّلف - إنَّما هو الرِّواية عن الله؛ يعني أنَّ المتكلِّم بهذا يُخبِر عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يحمِل المرءَ على حجز نفسه عن أن يتكلَّم بشيءٍ في القرآن مِن غير تحقُّق صحَّته ابتداءً.

فما يتقاذفه النَّاس الآن ممَّا يُسمَّى (تدبُّرًا للقرآن) فيه شيءٌ يصحُّ كونه كذلك، وفيه شيءٌ كثيرٌ:

○ تارةً يكون من التَّفسير الإشاريِّ؛ وهو معانٍ صحيحةٌ تُستنبَط من آيات القرآن الكريم.

○ ومنه شيءٌ كثيرٌ أيضًا مِن الخَواطر المرسَلة الَّتي لا خِطامَ لها ولا زِمامَ.

وأهل العلم وطُلَّابه ينبغي أن يأخذوا بما أُمِر به شرعًا وَفق مدارك الخطاب الشَّرعيِّ، لا وَفق ما يسير عليه النَّاس بأهوائهم ورغباتهم؛ فإنَّ هذا يُوقِع في المحذور.

ومِن أمثلته: أنَّ بعض مَن تكلَّم في هذا الباب ذكر أنَّ من أدلَّة عالَميَّة القرآن: تحريم الخنزير فيه؛ قال: لأنَّ هذا الحيوان لم يزل مأكولًا لأهل الكتاب من ذلك الزَّمان إلى زماننا هذا؛ قال: فحُرِّم الخنزير وذُكِر في مواضعَ مختلفةٍ مِن القرآن.

وهذا كلامٌ غير صحيحٍ؛ فإنَّ القرآن لا يحتاج إلى وصف (العالميَّة) أصلًا؛ فالقرآن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والعالَم هم المفتقِرون إلى كلام الله عَزَّوَجَلَّ ووحيه الَّذي أوحاه إلى أنبيائه.

ثمَّ إنَّ الحامل على ذكر تحريم الخنزير في القرآن في غير موضعٍ ليس هو هذا المعنى؛ وإنَّما ما ذكره مَن هو عارفٌ بمعاني القرآن - وهو الرَّاغب الأصفهانِيُّ في كتاب «الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة» -؛ وهو **أنَّ تحريم الخنزير ذُكِر كثيرًا في القرآن** لأنَّ العرب كانت منهم قبائلُ مِن النَّصارى، وكان يألَفُهم مَن يألفهم مِن بني عمومتهم مِمَّن هو مسلمٌ، أو مِن المشركين الَّذين يميلون إلى الإسلام، فكانوا يجتمعون معهم أكثر ما يجتمعون على الطَّعام، وكان طعام أولئك أكثرُه الخنزيرُ؛ فحُرِّم الخنزيرُ لِفَصْم عُرى الإلف بين المسلمين ومَن كان مِن أهل الإشراك قريبًا منهم، وبين بني عمومتهم مِن النَّصارى.

فهذا المعنى هو المعنى الَّذي لأجله ذُكِر الخنزير محرَّمًا في غير موضعٍ مِن القرآن.

ثمَّ قال: (وإحلال حلاله، وتحريمُ حرامه، والانقياد لأوامره، والانزِجار بزواجره) أي مناهيه الَّتي تزجُر وتمنع النَّاسَ.

قال: (والاعتبار بأمثاله، والاتِّعاظ بقَصصه) أي طلبُ العِظَة بقَصصه.

(والعمل بمحكَمه، والتَّسليم لمتشابِهه، والوقوف عند حدوده، والذَّبُّ عنه لتحريف الغالِين وانتِحال المبطِلين، والنَّصيحة له بكلِّ معانيها، والدَّعوة إلى ذلك على بصيرةٍ).

وهذه الأفراد المذكورة هي مِن جملة المعنى الَّذي أراده مِن التَّمسُّك بالكتاب والقيام بحقِّه.

وبقيَّة أفرادها مذكورةٌ في الآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة.

واتِّباع الكتاب - الَّذي هو القرآن - **والتَّمسُّكُ به والقيام بحقِّه له درجتان:**

◆ **الأولى**: درجةٌ فرضٌ - أي لازمةٌ واجبةٌ -؛ كالإيمان به، والعمل به، والتَّحاكم إليه، وحِفظِ ما لا بُدَّ من حفظه منه؛ مثل: الفاتحة للمصلِّي، ومثل: آيات الأحكام للقاضي.

◆ **والدَّرجة الثَّانية**: درجةٌ نافلةٌ؛ كتلاوته، والاستشفاء به، وحفظ ما زاد عن الفاتحة [1].

فهاتان الدَّرجتان تجمعان أفراد ما أُمِرنا به مِن حقِّ القرآن في التَّمسُّك به، والقيام

---

(١) كحفظ ما زاد عن الفاتحة ممَّا اختصَّ بفضيلةٍ؛ لأنَّ حفظ القرآن كلِّه فرضُ كفايةٍ، لكن حفظ ما زاد عن الفاتحة ممَّا اختُصَّ بفضيلةٍ نافلةٌ؛ مثل: آية الكرسيِّ، والمعوِّذتين، وغير ذلك.

ولذلك؛ مَن وعى الشَّرع علِم أنَّ أولى ما يُبدَأ به في حِفظ القرآن بعدَ الفاتحة لِمن كبُر سنُّه وتأخَّر: الآيات والسُّور الَّتي لها فضيلةٌ خاصَّةٌ؛ فهي الَّتي ينبغي أن يَحمِل نفسَه عليها؛ بأن يحفظ آية الكرسيِّ، وسورة المُلك، والآيتين من آخر سورة البقرة، وهلمَّ جرًّا. [شرح برنامج التَّعليم المستمر].

بحقِّه [١].

وقد كتب جماعةٌ في مضامين كتبهم في ذِكر حقِّ القرآن، لكن لا أعرف كتابًا مفرَدًا في حقِّ القرآن استوعب جميع هذه الأفراد ممَّا ورد في الآيات وفي الأحاديث وفي آثار السَّلف.

فهذا بابٌ حسنٌ أن ينهض به ناهضٌ مبيِّنًا حقَّ القرآن، ذاكرًا ما جاء في ذلك مِن الآيات والأحاديث والآثار.

(١) **وردُّ العلم إلى أصوله، أولى من إرساله بفضوله**؛ أي إنَّ هذا الكلام الَّذي ذكره الشَّيخ يتسلسل؛ لتعدُّد الأنواع، لكنَّ ردَّ العلم إلى الأصول الَّتي تضبِطه أولى، فتعرف أنَّ العبد مأمورٌ باتِّباع القرآن، ثمَّ تعرف أنَّ الَّذي أُمِرنا باتِّباعه منه على درجتين: إحداهما: درجةٌ فرضٌ. والثَّانية: درجةٌ نافلةٌ. [شرح برنامج التَّعليم المستمر].